جامعة الوصل
ALWASL UNIVERSITY

جامعة الوصل
AL WASL UNIVERSITY

كتاب

مؤتمر الدراسات العليا والبحث العلمي

والموسوم بـ

(قراءة النص- الإشكاليات والمناهج)

جامعة الوصل – الإمارات العربية المتحدة

2021 م

جامعة الوصل
ALWASL UNIVERSITY
جامعة الوصل
AL WASL UNIVERSITY

كتاب

مؤتمر الدراسات العليا والبحث العلمي

والموسوم بـ

قراءة النص – الإشكاليات والمناهج

جامعة الوصل – الإمارات العربية المتحدة

2021

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على من المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آهله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد.

فإن هذا الكتاب ثمرة يانعة، ونتاج قيِّم لما قُدِّم من بحوث، إلى المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العليا الذي عُقد في جامعة الوصل بدبيّ يومي (25-24) من شهر نوفمبر لعام 2021م، وقد حمل عنوان (قراءة النص - الإشكاليات والمناهج)؛ حيث شرع هذا العنوان الباب على مصراعيه لطرح كثير من القضايا المحورية والمفاهيم الشائكة ذات الصلة بقراءة النص، في إطار محاور ثلاثة: أولها- النص بين المصطلح والمفهوم، وثانيها- قراءة النص بين التراث والمعاصرة، وثالثها- جدلية العلاقة بين النص وفهمه.

وبعد تحكيم الأبحاث المقدمة تم اختيار تسعة وعشرين بحثًا يعالجون قراءة النص من وجهتيه النظرية والتطبيقية، مع اتساع رقعة التطبيق لتشمل الأنماط المختلفة للنص: اللغوية، والشرعية، والاجتماعية، والإعلامية.

وكانت البحوث المختارة خير شاهد على ما اتسم به المشاركون من اختلاف في الثقافات، والبيئات، والمؤسسات المنتمين إليها، إلا أن جامعهم الأكبر ما تمتعوا به من خبرات عريضة، ورؤى متجددة، ومشاركات فاعلة.

وأما عن منهج ترتيب البحوث في هذا الكتاب فقد حاولنا أن نراعي فيها أولية التقديم، وفق الترتيب الزمني لجلسات المؤتمر، بغض النظر عن طبيعة النص أو نوع الخطاب الذي تناوله البحث؛ ذلك بعد أن قامت لجنة معنية بإعادة مراجعة وتدقيق تلك البحوث. وقد أفردنا باحثي (سمينار الوصل)، وهم طلاب الدراسات العليا الذين كان المؤتمر يرمي إلى أن يستفيدوا من زملائهم الباحثين في كل أرجاء المعمورة- أفردنا لهم قسمًا خاصًّا هو (سمينار الوصل).

ويسعدنا في هذا الصدد أن نسوق أبلغ معاني الشكر والتقدير لمعالي جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء جامعة الوصل، لما أحاط به المؤتمر من رعاية كريمة، ولسعادة مدير الجامعة أ.د. محمد أحمد عبد الرحمن لدعمه الحثيث، ومتابعته المتواصلة، وتوجيهاته السديدة.

كما نقدم جزيل الشكر والتقدير إلى نيابة البحث العلمي واللجان العلمية، والتنظيمية، والتحكيمية، التي أسهمت في نجاح هذا المؤتمر، سائلين الله -تعالى- المزيد من الرقي والتقدم، والرفعة.

د. إبراهيم ربابعة

الرئيس التنفيذي للمؤتمر الدولي الثاني للبحث العلمي

خطاب النبي في القرآن دراسة تداولية

د محمد عبد الحليم أبو عرب

دكتوراه العلوم اللغوية - كلية الآداب جامعة حلوان (مصر)

لخطاب النبي في القرآن دلالات تتعدد بتعدد سياقاته، وللاستعمال القرآني أثر في فهم دلالة خطاب النبي، إذ يعد التفسير التداولي لذلك الخطاب آلية من آليات الوصول إلى المعنى، فقد تُظهِر أفعالُ الكلام من دلالة النص ما تحول بعض المأثورات بين المتلقي وفهم دلالته على وجهها، فيحاول هذا البحث إزالة اللبس الناتج عن الاستناد إلى الروايات التي تصطدم بمقرَرات الوحي الإلهي، ويحاول كذلك مناقشة كلام المفسرين أو بعض كلامهم عن مواطن خطاب النبي في القرآن، وليس القصد من وراء تلك المناقشة إلا الكشف عن بعض مقاصد القرآن الكريم من خطاب النبي من جهة، وبيان السمات الأسلوبية لهذا الخطاب من جهة أخرى، وفي هذا البيان ما يميط اللثام عن بعض أوجه ما اختُلِف فيه من الحق بإذنه، فتتبين بالسمات الأسلوبية للخطاب عند تصورها دلالات ذلك الخطاب، «فالنص والحاجة إلى بيانه أوجدا مبحث أفعال الكلام في التفكير العربي في القرن الثاني الهجري، أي قبل أن يوجد في السياق الغربي بقرون، إذ توفّر النص الحافز للبحث، كما توفرت الحاجة المحفوزة بالنص للسياق المعرفي العربي في ظل نشأة الحضارة الإسلامية ولم يتوفرا للسياق المعرفي الغربي، فالنص القرآني هو الذي وَلَّدَ الحاجة إلى:

- الفهم: التفسير والنحو وعلم اللغة.
- استنباط الأحكام: أصول الفقه.
- إبراز تفرد الصياغة: (الخصوصية الأسلوبية)، البلاغة.

وقد ارتبطت الحاجة على مستوى الفهم بالتفسير دورانًا في فلك النص وانحصارًا فيه على مستوى الرواية فيما عُرف بالتفسير بالمأثور، ثم بإعمال العقل في إطار معطيات علوم اللغة من المستوى المعجمي والمستوى الصوتي والمستوى الصرفي، ثم المستوى التركيبي الذي أثرى التفسير بالنظر المدقق في محاولة استثمار الاحتمالات النحوية وتوجيهها للمعنى، وقد كان للبعد السياقي (التداولي) الأثر الواضح في توجيه الاحتمالات النحوية برافديه التأسيسيين: أفعال الكلام، والسياق»[1].

وليس للمستوى التداولي في تفسير النص القرآني أثر إلا من وراء استجلاء دلالة الألفاظ والمعاني النحوية ثم دلالة السياق سواء السياق الداخلي (السياق اللغوي) أو

1- د عيد بلبع: القرآن الكريم والتطبيق التداولي أفعال الكلام بين الجذور المعرفية والنص، بحث منشور في مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، كلية التربية جامعة الإسكندرية، العدد السابع ديسمبر2017، ص14.15.

سياق الموقف (أسباب النزول)، فالبحث التداولي يهدف في مجمله إلى إبراز الدلالة، «فلا يحسن إذن الفصل بين المستوى الدلالي، والمستويين النحوي، والتداولي، وبخاصة في القرآن الكريم؛ إذ تقوم الدراسات القرآنية على تفسير المفردات اللغوية وتحليلها لاستجلاء الدلالة واكتشافها، ولا تتبيّن سمات الأسلوب إذا التفتنا إلى المعنى أو الفكرة دون اللفظ ولا العكس»[1].

ومما تجدر الإشارة إليه في بداية هذه الدراسة أنها تراعي في تناول النص القرآني خصوصية النص إنشاءً وتكوينًا، إذ «يقوم الكلام على قائله دليلًا. وإنه لعلى مثاله يكون. ولقد كان القرآن، من حيث هو خطاب، على مثال مرسله تمامًا وكمالًا، فأبلس وأبهر وقام على وجود الله دليلًا.

والقرآن، بوصفه كلامًا دالًا على ذاته ودالًا على مبدعه، يضع نفسه في قلب التواصل اللساني. ولذا نجده يحتوي، بالإضافة إلى نفسه، عنصرًا آخر لا يتم التواصل اللساني إلا به، ولا يكون بلاغًا إلا بوجوده. هذا العنصر هو المتلقي. وهو عنصر متضمن في الخطاب نفسه، ويؤدي دورًا يكون تحيين الخطاب فيه وتعينه الدلالي على مثاله. وهكذا نرى أن عملية الكلام في الخطاب القرآني تتم إذ تحتوي على عناصر التواصل الثلاثة:

المتكلم --------- الخطاب --------- المستمع

ولهذا يمكن النظر إلى القرآن بأنه دال بتضمن دلالات ثلاث: دلالة الكلام على منشئه، ودلالة الكلام على ذاته، ودلالة الكلام على متلقيه. ولا خلاف إذا سمينا المتكلم مرسِلًا أو باثًا، والخطاب رسالة أو نصًا، والسامع المتلقي أو المستقبِل أو المرسل إليه»[2].

ووجهتي في تلك الدراسة إلى خطاب النبي على وجه الخصوص، إذ للخطاب مفهوم واسع ليس في هذا البحث مجال لتناوله بتلك السعة الدلالية على ما له من أهمية، «فيعد موضوع الخطاب من الموضوعات اللغوية المهمة، وتكمن أهميته في مختلف مجالات الحياة (المجال التعليمي، المجال الديني، المجال الاجتماعي) ذلك أن الخطاب يساعد على التواصل البشري وتحقيق الأهداف المختلفة للناس، كما أن له دورًا مهمًا في تقريب وجهات النظر وإيضاح الأفكار وتوجيه الناس إلى الطريق السوي، فأضحى مصطلح الخطاب

1- محمد أبو عرب: حبك النص القرآني دراسة تطبيقية لمعايير علم اللغة النصي، دار فنون ومطبوعات دحروج ومكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ط1، 2021، ص318

2- د منذر عياشي: اللسانيات والدلالة دراسة لغوية، أمل الجديدة، سورية، دمشق، ط1، 2017، ص136.

ذا أهمية كبيرة بين الدارسين والنقاد على اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم، وذلك لما له من معانٍ متداخلة عبر شبكة من المعارف المتنوعة انعكست على تحديد معنى الخطاب، لذلك فإن الباحث عن هذا المفهوم يجد كمًا هائلًا من التعريفات»[1]، وليس المقصود في هذه الدراسة من معاني الخطاب إلا ما ذهب إليه ابن يعيش (ت: 643ه) من أن استعمال مصطلح المخاطب للدلالة على طرف الخطاب الآخر (المرسل إليه).

وخطاب النبي في القرآن على وجه الخصوص عجيب؛ فأكثر سور القرآن تبدأ بخطاب النبي، كسورة البقرة، ففي أولها خطاب للنبي في قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) البقرة: 2، فكاف الخطاب في اسم الإشارة عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم بدليل توجه الخطاب إليه في قوله تعالى بعدها: (والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) البقرة: 4، وكذلك أكثر السور التي تبدأ بذكر الكتاب العزيز خاطبت النبي، ولعل ذلك ظاهر في مطلع سورة إبراهيم مثلًا (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) إبراهيم: 1، وبعض السور بدأت بندائه كسور الأحزاب والطلاق والتحريم والمزمل والمدثر، وبعضها بدأ بالتلطف له كسور طه ويس والقلم والضحى، وبعضها بذكره بصيغة الغيبة تعظيما كسور التوبة والإسراء والكهف والفرقان، وبعضها بأمره بالبلاغ كسور الجن والكافرون والإخلاص والفلق والناس، وبعضها بذكر بعض شأنه مع أمته كسورة الأنفال، وبعضها بأمره بالذكر والتسبيح كسورة الأعلى، وبعضها بحواره كسورة المجادلة، وبعضها بسؤاله وإن كان سؤالًا تقريريًا كسورة الغاشية، وبعضها بذكر بعض نعم الله عليه كسورة الشرح، وهكذا يأتي خطاب النبي في القرآن ممتدًا امتدادَ وعد الله له في قوله (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) الشرح: 4، ومعلنًا قدره العلي.

وخلافًا لذلك نجد التفات الخطاب إلى غير النبي الكريم في مواطن الحديث عن أمور ربما آذى النبيَ توجّهُ الخطاب إليه فيها، ويأتي الالتفات عن خطاب النبي في مثل تلك المواطن تجنبًا لإيذاء نفسه الشريفة؛ وذلك كتحول الخطاب في سورة المسد، وتحول الخطاب في الربع الأول من سورة النور؛ إذ جاء الخطاب في هذين الموضعين عامًا لم يتوجه للنبي ولو في آية منهما، مع أن خطاب القرآن من قبل هذين الموضعين ومن بعدهما مُوَجّهٌ له صلى الله عليه وسلم، ولعل في ذلك إشارة لرعاية القرآن لما يجب في حق هذا النبي صلى الله عليه وسلم من توقير، وليقيم الناسُ أمرَهم مع رسول الله على أساسٍ

1- فاطمة نصر: تأويلية الخطاب عند «محمد أركون»، بحث منشور في مجلة سياقات، العدد السابع، ديسمبر2017، ص227

من التعظيم والتوقير.

ولعل في خطاب النبي في القرآن مظهرًا من مظاهر قوله (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)؛ وذلك لأن كلَّ من قرأ القرآن شاهدٌ فضلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن القرآن لا يخلو موضع فيه من خطابه صلى الله عليه وسلم؛ إن لم يكن الخطاب له تعيينًا، فلأنه أول مخاطب به لتنزله على قلبه عليه الصلاة والسلام، فلئن كان خطاب القرآن في عمومه مثيرًا لتفاعل القارئ أو المستقبل بوصفه متلقي ذلك الخطاب فإن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بوصفه المتلقي الأول لذلك الخطاب أولى المتلقين بالتفاعل مع هذا الخطاب الجليل تفاعلَ تكريم وتفاعل استجابة، أما التكريم فبتشريفه بالتلقي وأما الاستجابة فبتكريمه بالهداية والتأييد، وذلك إن يكن ميزة لخطاب النبي على وجه الخصوص فإنه سمة وخصيصة من خصائص النص القرآني على وجه العموم، ومن خصائص كل خطاب على وجه أعم، يقول الدكتور منذر عياشي في كلامه عن (القرآن: تفاعل بين القارئ والمقروء): «وبهذا يكون القرآن، من حيث هو بلاغ وبيان ونص تواصلي وتداولي، قد أعطى للمنادى (القارئ، المتلقي، المستقبل، السامع) مكانته، ووسد إليه تفعيل ذاتيته النصية. وما كان ذلك كذلك إلا لأن حياة النص (القرآن) (وليس النص بذاته الكتابية) لا تكتمل وجودًا إلا بمستقبليه»[1]، فرعاية جانب التلقي في تناول النص القرآني تبين من دلالات النص ما لا يتضح إلا به، إذ تكشف خصوصية التلقي عن «كونه متعدد المستويات، فهو رسالة إلى المتلقي البشري الأول (رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ثم هي رسالة أولى إلى قوم خوالي الذهن من احتمال المفاجأة باللغة (المستعملة) ومضامينها الصادمة للمستقر في نفوسهم المتوارث، ثم هي نفسها رسالة إلى من أسلموا لبعضها زمن النزول، هذا البعض الذي أخذ يزداد على مسامعهم وقلوبهم وعقولهم بمتواليات المفاجأة والإبهار حتى تم، ثم هي أخيرًا رسالة فوق قدرة الزمن على البِلَى أو التبديل أو التفتير، فما يزال متلقوها يعيشون حالة بكاء لحظة المفاجأة الأولى، التي تتسم بالتجدد لا البِلَى مع التكرار الذاتي لتلقيها»[2].

لهذا التأسيس البراجماتي أو التداولي آثرت أن يكون تناول الخطاب النبوي في القرآن تناولًا تداوليًا يسعى من خلال النظر في استعمال اللغة إلى بيان أثر الاستعمال اللغوي

1- د منذر عياشي: القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، دار أمل الجديدة، سورية، دمشق، ط1، 2020، ص9

2- د عيد بلبع: القرآن الكريم والتطبيق التداولي، مجلة سياقات، العدد السابع، ديسمبر2017، ص24

على المتلقي، «فالبراجماتية تدرس العوامل التي تحكم اختيارنا للغة في تفاعل اجتماعي وآثار اختيارنا، أو هي دراسة اللغة كما تستعمل في سياق اجتماعي بما في ذلك أثرها في المحاورين، فالبراجماتية فرع من علم اللغة يتعلق باستعمال اللغة في سياقات اجتماعية، والطرق التي ينتج ويدرك بها الناس المعاني من خلال اللغة»[1]، فالبعد التداولي في دراسة اللغة إذن يعنى بالبنية وبالاستعمال وبالسياق وبمرسل الخطاب ومستقبله وبالدلالة، إذ «العناصر الأساسية التي تتشكل منها البراجماتية هي: الاستعمال اللغوي، والسياق الاجتماعي، وأطراف الحوار، والمعنى غير المباشر»[2]، وبهذا فإن «التداولية هي أساس اللسانيات»[3]، إذ «تعد التداولية بدايةً محاولة للإجابة عن أسئلة مثل: ماذا نفعل عندما نتكلم؟ وماذا نقول بالضبط عندما نتكلم؟ من يتكلم ولمن؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ومن أجل من؟ ماذا نحتاج أن نعرف لكي تتوقف هذه الجملة أو تلك عن أن تكون غامضة؟ ما هو الوعد؟ كيف استطعنا أن نقول شيئًا آخر غير الذي نريد أن نقول؟ هل يمكننا أن نثق بالمعنى الحرفي لقول ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟ ضمن أي مقياس يتحدد الواقع الإنساني بقدرته اللغوية؟»[4].

ولئن كان بعض تلك الأسئلة تصلح في تناول النص القرآني، بوصفه كلامًا، فإن بعضها لا يصلح في دراسة لغة القرآن خاصة، بوصفه غير بشري، وبوصفه ذا نظام إنشائي ووظيفي وتكويني خاص. وباعتبار هاتين الطبيعتين تنطلق هذه الدراسة، ولا ينبغي أن تغفلهما دراسة للنص القرآني، فالقرآن من حيث هو كلام نص تواصلي يلزم أن يدرك متلقيه مقاصده، ومن حيث هو كلام الله فهو نص متعالٍ على معهود كلام البشر فيلزم أن يدرك متلقيه اختلافه عن كل كلام بشري وتعاليه على قوانين الكلام البشري، ومن ثَم مخالفته لأنساق الكلام البشري.

ومن جهة أخرى وبالنظر إلى منهج البحث «فالإجراء التداولي في الحقيقة رد فعل على عقم الوصفية وجمودها، وهو المخلص لعلم اللغة من ثباتها الخانق، فالإجراء التداولي منهجية مرنة من منهجيات القراءات السياقية التي تأخذ في حسابها عناصر الإيضاح

1- ستيفن ك. ليفنسون: البراجماتية اللغوية، ترجمة: د سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2015، ص12

2- السابق والصفحة نفسها

3- فرانسواز آرمنغو: التداولية دراسة في شروط استعمال لكلام، ترجمة: د منذر عياشي، دار أمل الجديدة سورية دمشق، ط1، 2020، ص21

4- السابق، والصفحة نفسها

والتوجيه والتقييد والإطلاق والإحكام من داخل النص وخارجه، فهي منهجية انفتاحية استيعابية لا تقف عند حدود رصد الظواهر وتسكينها تصنيفيًا في عقم وجمود لا يليق بالنص قبل ألا يليق بالمنهج»[1].

وقد لا أكون مبالغًا إن قلت إنّ خطاب النبي في القرآن لا يزال كاشفًا عن وجه من وجوه إعجاز القرآن وبلاغته، بصلاحية هذا الخطاب للجواب عن أكثر ما يثار من شُبهات حول الرسالة النبوية والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وذلك بالنظر في الاستعمال اللغوي وما يثيره من دلالات يفرضها التفسير التداولي للنص إن جاز التعبير، ولا شك أن النص القرآني واسع الدلالة، فليس المقصود بالفرض هنا التزام القطع بقول واحد، ولكنه يعني في الوقت نفسه رفض هيمنة دلالة بعينها وإن تقادم عهد الناس بارتباطها بالنص وتضامّها معه.

لذا آثرت الوقوف أولًا على كثافة الخطاب النبوي في القرآن الكريم مستعينًا بإحصاء مواطن الخطاب في سورة البقرة ثم النظر في بعض مواطن الشبهات في خطاب النبي في القرآن عامة نظرًا قائمًا على دلالة النص نفسه وما يُفهم من دلالات يسوغها تلقي النص القرآني من منظور تداولي بوصفه نصًا تواصليًا غايته إفهام المتلقي.

سورة البقرة:

تبدأ سورة البقرة بخطاب يتوجه بدلالة الآيات اللاحقة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) البقرة: 2، فكاف الخطاب فيه إن كانت دلالتها عامة لكل متلقٍ لهذا الخطاب، فالنبي أول متلق للوحي القرآني، فهو صلى الله عليه وسلم أول مخاطب به، فالخطاب وإن كان عامًا فإنه مخاطب به على وجه الخصوص لتنزُّله عليه من قبل أن يتلقاه أتباعه أو يتلقاه الناس جميعًا المؤمن به والكافر به، ثم إن الخطاب للنبي في هذا الموضع على وجه الخصوص لتعيُّن الخطاب له دون غيره فيما تلى الآية من آيات لاحقة، كقوله تعالى: (والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) {البقرة/4}، فالضمير في (إليك) و (قبلك) عائد إلى النبي بالضرورة، وفي هذا دليل على عود الضمير إليه في الآية قبل السابقة في قوله: (ذلك الكتاب)، ثم يمتد خطاب النبي خلال آيات السورة الكريمة، فقد وردت الإحالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سورة البقرة في مائة وثمانية وخمسين موضعًا، سواء كانت الإحالة بكاف الخطاب، أو بالضمير المخاطبِهِ، أو بضمير الغائب العائد

1- د عيد بلبع: القرآن الكريم والتطبيق التداولي، مجلة سياقات، ص27

إليه، أو بالموصول، أو بذكر صفته؛ فأما الإحالة إليه بكاف الخطاب، فسبقت الإشارة إليه في أول آيات السورة الكريمة وامتدت الإحالة بكاف الخطاب حتى آخر آياتها، كقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) البقرة: 30، وقوله تعالى: (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ) البقرة: 97، وقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) {البقرة/119}، وقوله تعالى: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ {البقرة/120}، وقوله تعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) البقرة: 144، وقوله تعالى: (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) {البقرة/147}، وقوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) البقرة: 186، وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ) البقرة: 189، وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ) البقرة: 215، وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) البقرة: 217، وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) البقرة: 219، وقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى) البقرة: 220، وقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) البقرة: 222، وقوله تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) {البقرة/252}.

وأُحيل إلى النبي بذكر صفته كقوله تعالى: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) البقرة: 23، وقوله تعالى: (أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ) البقرة: 108، وقوله تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ {البقرة/129}، وقوله تعالى: (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) البقرة: 143، وقوله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) {البقرة/151}، وقوله تعالى: (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ) البقرة: 214، وقوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ) البقرة: 285.

وبالضمير المخاطِبِهِ ظاهرًا ومستترًا؛ فأما الظاهر فكقوله تعالى: (أَأَنذَرْتَهُمْ) البقرة: 6، وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ) البقرة: 143، وأما المستتر فكقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ) البقرة: 25، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) البقرة: 107، وقوله تعالى: (وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) {البقرة/119}، وقوله تعالى: (قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ {البقرة/139}، وقوله تعالى: (قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ)

البقرة: 140، وقوله تعالى: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) البقرة: 211.

وبالضمير الغائب البارز والمستتر؛ فأما البارز فكقوله تعالى: (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ) البقرة: 214، وقوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ) البقرة: 285، وأما المستتر فكقوله تعالى: (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ) البقرة: 129، وقوله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) {البقرة/151}.

وبالموصول كقوله تعالى: (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) البقرة: 17.

وبهذا تشير كثافة الإحالة إلى النبي في سورة البقرة، وهو الشأن في القرآن جملةً، إلى ما انطوى عليه النص القرآني من تبيين لمكانة البلاغ النبوي في هذا الدين.

كما تشير الإحالة إلى النبي إلى ملمح من ملامح الخطاب القرآني، هو التلطف للنبي، ولعل ذلك ظاهر في بعض الآيات التي جاء خطاب النبي فيها من خلال الالتفات الدالّ على حرص النص القرآني على التوجّه بالخطاب إلى النبي، وذلك كقوله تعالى: (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) {البقرة/52}؛ إذ جاء الالتفات في (ذلك) إلى خطابه صلى الله عليه وسلم، عدولًا عن خطاب بني إسرائيل في قوله قبلها (عنكم) مشيرًا إلى قيام الخطاب القرآني على توجهه لهذا النبي صلى الله عليه وسلم.

خطاب النبي في سورة الإسراء:

بدأت سورة الإسراء بذكر النبي صلى الله عليه وسلم بصفة من صفاته هي عبوديته لله تعالى، ثم الإحالة إليه بضمير الغائب، إذ قال تعالى في مطلع السورة الكريمة: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) {الإسراء/1}، ثم جاء أول موضع لخطاب النبي في السورة في الآية السابعة عشرة منها في قوله تعالى: (وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) {الإسراء/17}، وتتابع خطاب النبي في السورة الكريمة والإحالة إليه صلى الله عليه وسلم إلى آخر السورة الكريمة فتارة يكون حضور خطاب النبي كثيفًا في بعض آياتها وتارة يقل وتارة يغيب، لكن مواضع خطابه صلى الله عليه وسلم والإحالة إليه في هذه السورة بلغت (141) موضعًا، منها (19) موضعًا خوطب فيها النبي بالأمر بالبلاغ بلفظ (قل)، ولو شئنا أن نتبين كثافة خطاب النبي في السورة من خلال النظر في بعض المواضع التي شهدت

حضور ذلك الخطاب فلنضرب لذلك مثلًا بقوله تعالى: (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا. وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلًا. سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا. أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا. وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا. وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا. وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا. وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا. وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا. إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا. قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {الإسراء/88.73}.

وفي هذا الموضع من السورة على وجه الخصوص يتجلى سؤال قد لا يجد عند كثير من مستقبلي هذا الخطاب جوابًا شافيًا، وهو: كيف استقبل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الخطاب في تلك الآيات: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذًا لاتخذوك خليلًا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا. إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرًا) الإسراء: 73_75.

والذي يقرأ عَجولًا بغير تدبر قد يتعجب من هذا القسم: (لقد كدت تركن إليهم)، ثم يزداد عجبه من الوعيد بعده: (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات)، ثم يبلغ عجبه المنتهى حين يقرأ التيئيس بعد الوعيد: (ثم لا تجد لك علينا نصيرًا).

والحق أن ما في الآيات مما هو مظنة الشدة والوعيد إنما هو غاية التلطف والتأييد؛ فقوله تعالى: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلًا) جاء القسم فيه في سياق النفي لا الإقرار، وشتان ما بين النقيضين، فأما النفي في الآية فمفهوم من (لولا)، فالتركيب في الآية قاطع بأن المعنى: والله لن تركن إليهم لأنا ثبتناك، أو بلفظ آخر: لولا أنك مؤيد من ربك لكدت تركن إليهم. فالآية إذن تؤكد أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم معصوم من

أن يركن إليهم، بل معصوم من أن يركن إليهم شيئًا قليلًا، بل معصوم من أن (يكاد) يركن إليهم ولو شيئا قليلا. فالفعل (كدت تركن) لما جاء في جواب «لولا» دل ذلك على امتناعه لوجود (ثبتناك)، وما بعد هذا الفعل الممتنع حصوله متعلق به ومترتب عليه، فلو حدث أن ركنت إليهم _ ولن تركن _ إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرًا، فالخطاب هنا مبنيّ على فرض حصول ما نفى القرآن حصوله وأكد امتناعه بالقسم المفهوم من قوله (لقد)، ووجه العجب في تأكيد هذا النفي أنه ليس نفيا للركون إليهم، بل للاقتراب من الركون، وذلك مدلول عليه بقوله (كدت)، ونفي كذلك لكل ركون قل أو كثر، وذلك مدلول عليه بقوله (شيئا قليلًا).

ثم تُشهِدنا الآيات مقاما عليا للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، هو مقام نصر الله له وتأييده وقطع دابر من أراد أذاه، فجاء قوله تعالى: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خلافك إلا قليلا).

ثم تؤكد الآيات أن هذا النبي مؤيَّد من ربه وأن الله تعالى ناصره، إذ تأمره الآيات بما الله صانعه؛ (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)؛ فأمره أن يقول (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) لكيلا تذهب مذهبا شططا في فهم قوله (ثم لا تجد لك علينا نصيرًا)، وإن الذي أمره بالدعاء لهو الذي أنجز له وعده بالنصر.

ولا عجب أن يقرر القرآن في هذا الموضع من سورة الإسراء أن ما يزداد به المؤمنون إيمانا من وحي الله هو عينه ما يزداد به الظالمون خسرانا؛ (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا). فآياته التي أُشكِلت على المرتابين هي آياته التي كانت نورا وهداية للمؤمنين. وسبحان من افتتح تلك السورة بتشريف عبده صلى الله عليه وسلم بالإسراء به، وختمها بتشريفه صلى الله عليه وسلم بالرسالة والبلاغ عن ربه الأعلى.

وفي خطاب النبي في تلك السورة الكريمة بيان لبعض خصائص نبوته عليه الصلاة والسلام، وأورد هنا بعض آياتها التي أوردها الدكتور منذر عياشي لاتخاذها منطلقًا لتبيين بعض خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وأتخذُ ورودها فرصة لتوضيح مواطن خطاب النبي والإحالة إليه فيها من خلال تظليل تلك المواطن، يقول: «ولقد نستطيع أن نأخذ في هذا شهادة القرآن نفسه، فهو يقول: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ

بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا {86} إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا {87} قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {88} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا {الإسراء/89} وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولًا {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولًا {94} قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولًا {95} قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) {الإسراء/96}.

إن هذه الآيات واضحة لا تحتاج إلى مفسر غواص يفك فيها سرًا غامضًا أو معنى محتجبًا أو مقصدًا غائبًا. وإنها لتقطع لسان كل خرافة وتسد باب كل أسطورة من المعجزات الموهومة والمزعومة»[1].

إن ذلك التحليل (التداولي) في أبسط صوره يبيّن كيف غيّر القرآن مفاهيم الجاهلية بنصوصه، وتلك المعالجة التداولية هي التي جعلت الدكتور منذر عياشي يوازن من خلال تلك الآيات بين نسقين معرفيين، أحدهما مستقر في الفكر الجاهلي، والآخر مستقر فيما جاء به الإسلام وقرره النص القرآني، يقول: «تعد الآيات التي ذكرناها (وهي قرآن عظيم منزل من رب العالمين) وثيقة تاريخية بالغة الصحة وبالغة الدقة في وصف الأساس النظري والعلمي لتأسيس الفهم بالنسبة إلى النبوة وخصومها في الوقت ذاته وعلى حد سواء. ولذا، فهي بهذا المعنى تقف شاهدة على نسق ثقافي وعلى مجتمع أسس فهمه وفقًا لهذا النسق الثقافي، كما تقف شاهدة أيضًا على الانقلاب الكبير الذي أعلنه نص النبوة وأحدثه على هذين الصعيدين في الآن نفسه:

1- لقد كان القوم في تأسيس الفهم، وهم في هذا ككل أهل الأرض في ذلك العصر، يستندون إلى:

أ- الشخص بوصفه بطلًا أسطوريًا، لأن هذا يمنحه قيمة يتفوق بها على أقرانه في المجتمع الذي نشأ فيه، وفي المجتمع الإنساني.

1- د منذر عياشي: القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، أمل الجديدة، سورية، دمشق، ط1، 2020، ص16

ب- وإلى الخوارق (المعجزات) بوصفها مؤيدة لهذا البطل الأسطوري ومصدقة.

2- أما النبوة، فإننا نجد في تأسيسها للفهم، أن:

أ- الشخص قد استند إلى نص حمله إلى مرتبة النبوة وكلفه بها.

ب- وأن الشخص استند إلى ممكناته (قدراته وأفعاله) الإنسانية التي يشترك فيها مع كل البشر في كل زمان ومكان.

تظهر هاتان الصورتان، إذن، في الآيات التي ذكرناها. وهذا أمر يستدل به على تضاد النسقين الثقافيين اللذين أخذا في التصارع تأسيسًا للفهم. ولذا، فقد جاءت صورة الشخص (أي البطل الأسطوري) على هيئة مطالب وتحديات تصدى بها القوم لزعم النبوة. وأما الصورة الأخرى، صورة الشخص (البشري)، فقد جاءت على ما تكون به صورة الإنسان معترفًا بحقيقته البشرية، ونافيًا للخوارق والمعجزات عن أفعاله»[1].

ويصنف الدكتور منذر عياشي الآيات صنفين، فيعطي الأول مسمى النسق الأسطوري، ويعطي الثاني مسمى نسق الشخص النبي، ويوازن بين النسقين في الجدول التالي:

نسق البطل الأسطوري	نسق الشخص النبي
1- لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا	1 (-)
2- أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا	2 (-)
3- أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا	3 (-)
4- أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلًا	4 (-)
5- أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ	5 (-)
6- أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ	6 (-)
7- (-)	7- قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً

«إذا نظرنا إلى الفروق بين النسقين، فسنجد أن ثمة ست سمات يفترض النسق الأسطوري وجودها في بطله لكي يعتد به ويحمل على محمل الصدق وينال رتبة التصديق.

1- السابق، ص18

وفي المقابل فإن هذه السمات لا يملكها الشخص النبي، وقد أشرنا بالعلامة (-) للدلالة على ذلك.

ولقد يعني هذا أننا إزاء نسقين متباينين ومختلفين أشد الاختلاف وأبعده. فالنسق الأول، يتمثل في النسق الثقافي الجاهلي لما قبل الإسلام، والنسق الثاني، يتمثل في النسق الثقافي الإسلامي. كما يعني هذا أيضًا، أن النسق الأول (الأسطوري) إعجازي في طبعه ومؤداه، ويستند، ضمنًا وأصلًا، إلى قاعدة التحدي الضرورية لصناعة البطل الأسطوري في القصص الخرافي. وكذلك يعني أخيرًا، أن النسق الثاني (الإسلامي) نسق إنساني وعلى مثال البشر خلقًا، ويستند فيه الشخص، بوصفه رسولًا، إلى الخلق البشري أصلًا ونبوة، ظاهرًا وباطنًا»[1].

ففي خطاب النبي في سورة الإسراء إذن بيان لما أشكِل على بعض مستقبلي الخطاب القرآني في السورة الكريمة على وجه الخصوص، وبيان كذلك لبعض خصائص النبوة على وجه العموم.

خطاب النبي في سورة الأحزاب:

تبدأ سورة الأحزاب بخطاب لا تعيه إلا نفس مؤمنة، وإن شئت أن تتبين أثر الإيمان؛ بل أثر الإيمان الصادق في الفهم عند استقبال ذلك الخطاب فاقرأ الآيتين اللتين سبقتا ذلك النداء، وهما قوله تعالى في آخر سورة السجدة: (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ 29 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) {السجدة/30}.

آخر سورة السجدة إذن مقدمة لتلقي النداء في أول سورة الأحزاب بما ينبغي أن يُتَلَقَّى به، فكأن هاتين الآيتين في آخر سورة السجدة تعلنان أن الإيمان قرينة مهمة في فهم الخطاب في أول سورة الأحزاب، وتعلنان أيضًا أنه ليس الإيمان فحسب؛ بل درجة من درجات الإيمان هي التي يحسن استقبال ذلك الخطاب بها، يؤكد ذلك قوله: (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم)، فإذا كان ثمة ادعاء للإيمان فلا قيمة له في تلقي هذا الخطاب، لأنه لا يحسُن تلقيه إلا بالإيمان الصادق.

كما تشير الآيتان إلى ما قد يلاقيه النبي صلى الله عليه وسلم ممن لا يعرفون له حقه من التوقير والتعزير والنصرة، فيأمره الله تعالى بالإعراض عنهم وانتظار قضاء الله عز

1- السابق، ص20

وجل، فيأتي قوله تعالى: (فأعرض عنهم وانتظر أنهم منتظرون) دالًا على تكريم النبي، إذ هو مخاطب بهذا الوحي، وخطابه به يعني حضوره، ولحضوره هذا معنى إذا نظرنا إلى تغييب المكذبين إذ أشير إليهم بالضمير الغائب (إنهم) إبعادًا لهم وتأكيدًا على أنهم مُخرَجون من دائرة المنصورين مُبعَدون عنها.

تبدأ سورة الأحزاب بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) {الأحزاب/1_2}. حسبك من تعظيم النبي في هذا النداء صدارته، وصيغته؛ أما تصدره مفتتح السورة ففيه من تعظيمه ما هو ظاهر بحيث لا يحتاج إلى دليل عليه، ولا يغُرنَّك تصدر نداء الكافرين في بعض سور الكتاب العزيز فتقولَ: لو كان فيه تعظيم لما بدأ سورة الكافرين بندائهم؛ والرد على مثل هذا التوهُّم أن السورة لم تبدأ بندائهم بل بخطاب النبي في قوله: (قل) وما بعد ذلك الخطاب فرع له أو إن شئت فقل هو امتداد له. وأما صيغة النداء ففيها من التشريف للنبي ما يتضح من خلال تعريف (النبي) بـ (ال) العهد التي تفيد تعيُّن المخاطب، أو تفرده فلا يدعى بالنبوة نبي إلا من بعد هذا النبي، فهو المقدم في الرتبة على غيره من إخوانه من الأنبياء تقديمًا مؤكدًا في القرآن الكريم بقوله تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) البقرة: 253، وبقوله تعالى: (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) الإسراء: 55، فالمعرفة أدل على علو الرتبة من النكرة، وهذا يتضح حين نفترض البدائل التعبيرية، كأن ينادى بالنكرة المقصودة (يا نبي) أو بالعلم (يا محمد) أو بالإضافة (يا رسول الله)، فيظهر معنى التشريف في هذا التركيب (يا أيها النبي).

بهذا التصور ينبغي أن يكون تلقي الأمر (اتق الله)؛ فناهيك عن أن الأمر هنا قد يكون عامًا لأمته صلى الله عليه وسلم لكنه جاء بخطاب النبي جريًا على عادة القرآن الكريم في توجيه الخطاب للنبي وربما يكون الخطاب عامًا لسائر المتلقين، بل لو تعيَّن الخطاب للنبي فلا غرو سيُحمَل على وجهه المتفق وسياق الآيات. وقد تكرر ذلك الأمر في السورة بالصيغة نفسها في قوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) {الأحزاب/37}، ولعل في هذا التكرار بيان للمعنى، وفي ذلك تفصيل يلزم توضيحه.

سورة الأحزاب تعالج قضية واضحة في أول السورة وشديدة الوضوح في وسطها؛ هي قضية تشريعية حاكمة باختلاف بين أحكام الأبناء الذين من أصلابكم والأدعياء الذين يجب عليكم أن تدعوهم لآبائهم، وذلك معلن في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا {الأحزاب/5.4}، تلك القضية هي المحور الرئيس للسورة الكريمة، مع بيانٍ وتبيينٍ لما يجب في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم من توقير؛ أما كون أمر الأدعياء هو الشأنَ الأظهر في السورة الكريمة فتوضح ذلك الآية المذكورة آنفًا، وتؤكده آيات أخر كقوله تعالى: (وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) {الأحزاب/6}، وقوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) {الأحزاب/37}، وقوله تعالى: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) {الأحزاب/40}، فالسورة إذن تعالج قضية اجتماعية لكنها موصولة بقضايا إيمانية وقضايا سياسية إن جاز التعبير، أما اتصالها بالإيمان فظاهر، إذ الاستجابة لذلك تتفاوت بتفاوت درجات الإيمان بالله ورسوله، فمن آمن إيمانًا صادقًا حسنت استجابته لما قضى الله وبلّغ نبيه، وإلا حكّم اختيارَ نفسه، وهذا المعنى ما قررته الآية: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) {الأحزاب/36}، كما تقرر بعض آيات السورة الكريمة تحمّل الإنسان تبعات إيمانه واستجابته لما قضى الله ورسوله أو إعراضه عنه، كقوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) {الأحزاب/72}، والمفهوم من تلك النصوص أن التشريع يميّز الإيمان ويمحص الذين آمنوا ويُظهِر المنافقين؛ أما المؤمن فيُعلَم حاله باستجابته، وأما المنافق فيُفضح أمره بخوضه في آيات الله إذا نزلت سورة تنبئهم بما قضى الله ورسوله، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) {الأحزاب/12}.

وأما اتصالها بقضية السياسة فذلك أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى إنما سوّغ تخلفَهم عن صفوف المؤمنين ارتيابُهم في آيات الله التي بلغها نبيُه،

ولقد بيّنت السورة الكريمة أمرهم في آيات بينات تفصّل القول في شأنهم، وذلك في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا. قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا. قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا. يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا {الأحزاب/13_20}، فانظر كيف يَميز اللّهُ الخبيثَ من الطيب، فيمحص الذين آمنوا ويعلم المنافقين؟!.

إن تلك الآيات تبين أثر الإيمان في أدق الأمور وأعظمها خطرًا في آن واحد، وتبين كذلك ارتباط جوانب الحياة بعضها ببعض وتؤكد أن الأمانة التي حملها الإنسان متصلة بشتى جوانب حياته.

إن الثبات في ساعة العسرة يقابله في السورة الكريمة ثبات عند كل ما يستقبل الإنسان من وحي الله فيكون شبهة عند المرتابين، ويكون آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وهذا ما يتجلى عند عرض شبهة تتردد في نفوس المرتابين عند قراءة بعض آيات سورة الأحزاب كقوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) {الأحزاب/37}، فما جاء في بعض كتب التفسير من تأوُّل لمعنى تلك الآية فيه من الفساد الظاهر معنى وحقيقة ما لا يخفى على كل ذي نظر؛ أورد القرطبي في تفسير تلك الآية «روى الترمذي قال: حدثنا علي بن حجر قال حدثنا داوود بن الزِّبرقان عن داوود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة رصي الله عنها قال: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) يعني بالإسلام، (وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) بالعتق فأعتقته، (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ

اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ) إلى قوله: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله تعالى: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلًا يقال له: زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ) فلان مولى فلان، وفلان أخو فلان، هو أقسط عند الله يعني أعدل، قال: أبو عيسى: هذا حديث غريب قد روي عن داوود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) هذا الحرف لم يرو بطوله.»[1]

ويعلق القرطبي على هذا الحديث بقوله: «هذا القدر هو الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وهو الذي صححه الترمذي في جامعه، وفي البخاري عن أنس بن مالك أن هذه الآية (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) نزلت في شأن زينب بنت حجش وزيد بن حارثة، وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن: ما أنزل على رسول الله آية أشد عليه من هذه الآية، وقال الحسن وعائشة: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية لشدتها عليه، وروي في الخبر أنه: أمسى زيد فأوى إلى فراشه، قالت زينب: ولم يستطعني زيد، وما امتنع منه غير ما منعه الله مني، فلا يقدر علي، هذه رواية أبي عصمة نوح بن أبي مريم، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك، وفي بعض الروايات: أن زيدًا تورم ذلك منه حين أراد أن يقربها، فهذا قريب من ذلك، وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإني أريد أن أطلقها، فقال له: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)، فطلقها زيد فنزلت: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) الآية.

واختلف الناس في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم الطبري وغيره إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت حجش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصًا على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، ثم إن زيدًا لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذىً باللسان وتعظمًا بالشرف، قال له: اتق الله، أي: فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف، وقال مقاتل:

1- الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، 2010، ج14، ص489

زوّج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حينًا، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أتى زيدًا يطلبه، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهوِيها وقال: «سبحان الله مقلّب القلوب»! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبرًا، تعظُم علي وتؤذيني بلسانها، فقال: صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وقيل: إن الله بعث ريحًا فرفعت الستر وزينب متفضلة في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لما جاء يطلب زيدًا، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها.»[1].

هذا كلام أورده القرطبي في تفسيره وما كان ينبغي له أن يورده، ولولا أنه مسطور في الألواح المنشورة بين الناس لما أوردته هنا، لكنّ فساده بيّن لا يُعيي متصديًا لزيفه أو كاشفًا بهتانَه المبين، ولقد علق المحقق على هذا الكلام في حاشيته بجواب ربما يكون كافيًا، بيد أن كل جواب عن هذا الافتراء لا يشفي الصدور، يقول الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي في تعليقه على ما أورده القرطبي: «هذا الكلام لا يساوي المداد الذي كُتب به وينبغي أن يبذل الباحثون كل جهد لتنقية كتب التفسير وغيرها من هذا العبث الذي لا يصدر إلا من أعداء الإسلام. وأرى أن طلاب البحث العلمي المتخصصين في التفسير لو كتبوا الرسالات العلمية في كتب التفسير المملوءة بما دسّه أعداء الإسلام، وأبانوا للناس الغث والسمين فيها تحت إشراف أساتذة متخصصين لكان في هذا العمل خدمة عظيمة للإسلام والمسلمين، وذلك لأن الكتب المملوءة بالإسرائيليات منتشرة بين الناس والكثير ممن يقتنيها ويقرأ فيها لا يستطيع أن يميز بين الجِدّ والهزل فيها ومن ثم يقوم بنشره بين الناس معتقدًا أنه حق وصواب كله، فيتعلم الناس ما يسيء إلى دينهم وهم لا يشعرون»[2].

هذا، وليت الأمر يقف عند حدود ما ورد من روايات مفتريات، لكنه تخطى ذلك إلى تأويلات فاسدة مفسدة، ومثله ما أورده القرطبي كذلك: «وقال ابن عباس: (وتخفي في نفسك) الحب لها، (وتخشى الناس) أي: تستحييهم، وقيل: تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلت طلِّقها، ويقولون أمر رجلًا بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها، (والله أحق أن تخشاه) في كل الأحوال، وقيل: والله أحق أن تستحيي منه»[3].

1- الجامع لأحكام القرآن 14/490، ومثل هذا الكلام أورده كثير من المفسرين كتفسير الألوسي 22/271.

2- السابق نفسه والصفحة نفسها

3- السابق 14/491

ويُرد على هذا الافتراء بما رُدَّ به على سابقه؛ وليس تفسير كتاب الله ساحة لقيل وقال أو للتأوُّل الجَهِل، الذي يفسد ولا يُصلِح ويُبهِم ولا يُبيّن ويُضِل ولا يهدي، فالعجب أن يتصدى لهذه الروايات من يبرر وقوعها وكأنها مسلَّمة لا سبيل لرد قبولها، إذ يقول الشعراوي رحمه الله في شرحه لتلك الآيات: إن رسول الله لما رأى زينب أعجبته كما تعجب الابنة أباها إذا ذهب لزيارتها فوجدها قد كمُل جمالها وظهر نشاطها فيعجب بذلك من ابنته فيسبح الله تعالى حامدًا فرحًا بابنته؛ وهذا التبرير وإن بدت سلامة القصد في تكلفه إلا أنه يقرر ويؤكد رواية لا يلزم تقريرها ولا يتحتم تأكيدها، بل وما منكرها بملوم، إذ يعد إنكارها إيمان بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يسلم بها إلا من رضي استبدال الظن بل الوهم باليقين، وهذا في كل منطق أمر عجيب!.

وأرى أن تلك الروايات اختُلِقت قيامًا على تخمين (صورة) للفظ دون التفات إلى دلالته المفهومة من سياقه اللغوي وسياقه المعرفي كذلك، وأقصد بالمعرفي هنا الخلفية المعرفية المقررة سلفًا لما يمكن أن يأتيه النبي أو يذر، وبناء على هذين السياقين على أقل تقدير تتحدد دلالة النص، أما ذلك الاختلاق فظني أنه قائم على رعاية (الشكل)، وهذا النمط في التحليل يؤدي بالضرورة إلى تلبُّس النص بالغموض، يقول هربيرت بركلي: «يعلمنا تاريخ الفلسفة بأن مفهوم «الشكل» يكتنفه كثير من الغموض، فإذا تكلمنا عن شكل العلامة سرعان ما يذهب تفكيرنا، بشكل طبيعي، إلى شكلها المادي وتواردها oc-curence الفردي. لكن المضمون والجوهر اللذين يتمتع بهما هذا الشكل أو ذاك، يلعبان في الوقت نفسه دورًا يصعب تحديده أحيانًا بشكل دقيق»[1].

ولو أردنا إذن أن نتبيّن دلالة تلك الآية من خلال سياق النص التي وردت فيه لوجدنا الأمر على خلاف ما يرد من أباطيل وافتراءات، يقول الألوسي في بيانه لكلام أهل التحقيق من المفسرين: «(أمسك عليك زوجك) أي زينب بنت جحش، وذلك أنها كانت ذات حدة ولا زالت تفخر على زيد بشرفها ويسمع منها ما يكره، فجاء رضي الله عنه يومًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن زينب قد اشتد عليّ لسانها وأنا أريد أن أطلقها، فقال له صلى الله عليه وسلم: (أمسك عليك زوجك)، (واتق الله) في أمرها ولا تطلقها ضرارًا وتعللًا بتكبرها واشتداد لسانها عليك، وتعدية (أمسك) بعلى لتضمينه معنى الحبس.

1- هربيرت بركلي: مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة: د قاسم مقداد، دار نينوى، سورية دمشق، 2013، ص77

(وتخفي في نفسك ما الله مبديه) عطف على (تقول) وجوزت الحالية بتقدير وأنت تخفي أو بدونه كما هو ظاهر كلام الزمخشري في مواضع من كشافه، والمراد بالموصول على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين رضي الله عنهما: ما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلقها زيد ويتزوجها بعد صلى الله عليه وسلم وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهري، وبكر بن العلاء، والقشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم. (وتخشى الناس) تخاف من اعتراضهم، وقيل: أي تستحيي من قولهم: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه، والمراد بالناس الجنس والمنافقون وهذا عطف على ما تقدم أو حال.»[1].

وهذا الكلام وإن كان أقوم قيلًا من الأول إلا أنه وقع في ما لا يحسن الخوض فيه وجاء مع ما فيه من حسن التوجيه بما لا يليق أن يأتي به امرؤ من تلقاء نفسه أو من شطط غيره. وإن شئت أن تحط بفساده خبرًا فقف على آخر ما نقلته لك من نقول الألوسي، وذلك قوله: «(وتخشى الناس) تخاف من اعتراضهم، وقيل: أي تستحيي من قولهم: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه»؛ وإني لأتساءل: كيف يرد مثل هذا في خاطر امرئ قرأ بعد تلك الآية قوله تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) {الأحزاب/39}، أيكون الرسل كلهم أجمعون معصومين من أن يخشوا أحدًا إلا الله ويتورط سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في خشية الناس؟! إن هذا لشيء عجاب!.

ولا أقصد هنا أن أحصي ما في تلك النصوص المكتسية بكساء البهتان والافتراء من زلات أو خطيئات، وذلك أن خطاياها إن أُحصيت عددًا فلن تُحصى أثرًا، لكن ما يمكن هنا هو شرف محاولة الولوج إلى معاني تلك الآيات بحسب ما يُحتّمه السياق ويقتضيه المقام.

ولا شك أن تبيّن دلالة آية من آيات السورة لا بد أن يكون في سياق السورة كلها، ولا يستقيم معنى الآية إذا كان ثمة اجتزاء لها من سياقها الواردة فيها، وسورة الأحزاب بدأت بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) {الأحزاب/1_3}، ويمكننا أن نتبيّن دلالة الآية السابعة والثلاثين من خلال تلك الآيات الثلاث؛ إذ يأتي الأمر باتباع ما أوحاه الله إليه موضحًا معنى قوله في الآية السابعة

1- روح المعاني، دار الحديث، القاهرة، 2005، 22/271.

والثلاثين (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) أي مما أوحى إليك من التشريع، فإذا أمرك أن تكون أسوة حسنة لأمتك فتعلمهم أنه لا حرج على المؤمنين في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا، فلا ينبغي أن تكتم هذا الوحي، ولا تحزن على من يُخشى عليه الفتنة فينقلب على وجهه، ولا تخشى هؤلاء أن يُفتنوا ولا تخشاهم أن يفتنوا غيرهم فيصدوا عن سبيل الله، وهذا هو معنى (وتخشى الناس) أي تخشاهم أن يُفتنوا أو تخشاهم أن يكونوا فتنة لغيرهم، دل على هذا قوله تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين) أي لا تطع داعيَ الحرص عليهم لأنك ترجو هدايتهم، ولا تطع داعيَ خشيتك أن يكونوا لغيرهم فتنة، إذ الله تعالى رادّهم على أعقابهم خاسرين، فلا يحزنك ضلالهم، واعلم أن خشيتك لله عاصمتك من الناس، وهذا معنى قوله: (والله أحق أن تخشاه)، ويدل على هذا المعنى قوله في أول السورة: (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)، ويبعد عن رسول الله كل البعد معنى خشية الناس بمعنى الاستحياء منهم، لأن ذلك فيه دلالة على أنه _ وهو الذي عصمه ربه _ قد أتى ما يُستحيى منه، ولا يستحيي المرء إلا من نقيصة، والرسول الكريم معصوم من أن يأتي النقائص، ناهيك عن قول الله تعالى بعد تلك الآية: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) {الأحزاب/39}، فكيف يؤكد القرآن أن المرسلين لا يخشون أحدًا إلا الله ثم يفهم مرتاب من الآية أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يخشى الناس؟

(وتخشى الناس) إذن أي تخشى أن يُفتنوا، أو تخشى أن يرتابوا، أو تخشى أن يرتدوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين، أو تخشى أن يكونوا فتنة لغيرهم إذا أشاعوا فتنتهم وشبهتهم وأذاعوا باطلهم وريبهم الذي يترددون فيه، وأنت الحريص عليهم والرؤوف الرحيم بهم، لذا يشق على نفسك الشريفة أن تتلوا عليهم من التشريع ما عسى أن يكون لهم فتنة.

ورب قائل يقول: لو كان ذلك هو المعنى المقصود لتعدى الفعل بحرف دال على ذلك كأن يتعدى بـ (على) ليفيد دلالة خشيته عليهم؛ والحق أن لغة القرآن لها خصوصية في التراكيب تكاد تكون خصيصة من خصائص النص القرآني، بل هي كذلك، بناء على «الحقيقة اللسانية التي تقول إن القرآن، بوصفه نصًا كلاميًا، نسق لا يعترف إلا بنظامه الخاص»[1]، وإذا كان الأمر كذلك فإنه ظاهر غاية الظهور في الاستعمال القرآني لحروف الجر على وجه التحديد، «فالمتأمل لورود مثل هذه الحروف في القرآن الكريم يتبين له

1- د منذر عياشي: القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، ص47

على الفور أن استعمالها في هذا النص يختلف في كثير من الأحيان عن المعهود في العربية واللغة النموذجية. فمن المتفق عليه أن تعلق الأفعال وتعديها بهذه الحروف لا يكون اعتباطًا وإنما يكون لكل فعل حرف يرتبط به ويصل إلى المفعول من خلاله بحيث لو وضع مكان هذا الحرف حرف آخر لبدا التركيب متنافرًا، إلا أن يتم تأويل هذا التركيب كما هو الحال في عشرات الأمثلة القرآنية وهذا الارتباط بين الفعل والحرف يبين المراد منه وسبب اختياره تحديدًا دون غيره من الحروف»[1]، ولئن كانت عشرات الأمثلة القرآنية شاهدة على تفرد القرآن بلغة خاصة غير محكومة بقوانين التركيب وغير خاضعة لمقاييس الاستعمال اللغوي الحاكمة على النصوص والموجهة لها، فليس من الصواب أن نحكِّم الشواهد أو حتى أن نبرهن بها على دلالة الاستعمال القرآني المخالف في أكثره للمعهود من كلام الناس، يقول د مجدي حسين: «ويبدو أن القول بتناوب الحروف واستعمال بعضها مكان بعض كانت ضرورة قرآنية ليفسروا بها هذه الإشكالات وليس هذا الاستعمال بالضرورة على هذا النحو في كلام العرب حتى ولو تصيدوا لنا بعض الشواهد برهانًا على رأيهم»[2]. فدل ذلك على تفرد الاستعمال القرآني للغة على وجه العموم ولحروف الجر على وجه أخص.

فإذا عدنا إلى كون ما أخفاه النبي في نفسه هو ما أوحى الله إليه من تشريع قد يشق على بعض أتباعه، فإنه يؤكد هذا المعنى أيضًا ما جاء في الآية من نسبة ذلك التشريع لله تعالى وبيان الحكمة منه، وذلك أن الله تعالى قال: (زوجناكها) ولم يقل تزوجتها، ليبين أن الأمر من الله تكليف للنبي، وليس رغبة من رسول الله فاستجاب الله له، ولو كان كذلك لعبر بما يناسبه كما جاء في سياق استجابة الله لمراد نبيه وإن لم يجهر به كما في قوله تعالى (قَد نَرَى تَقَلُّبَ وَجهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِيَنَّكَ قِبلَةً تَرضَاهَا) البقرة: 144، لكن (زوجناكها) تؤكد أن الله آمره بوحيٍ لحكمة معلنة في الآية الكريمة هي (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا)، ويعد إعلان القصد من التشريع هنا توضيحًا (تداوليًا) للمتلقي ليكون مقصد التشريع واضحًا وغايته معلنة، فيسد ذلك التوضيح وهذا الإعلان أبواب الولوج إلى اعتلال الفهم أو تلبيس الحقيقة بالباطل، ثم يؤكد الحق تعالى أن ذلك أمر الله وليست حاجة للنبي، لذا قال: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)، إذ لما كان الأمر متعلقًا بميل نفسه صلى الله عليه وسلم جاء التعقيب بقوله تعالى: (لَعَلَكَ تَرضَى) طه: 130، فلو كان للنبي ميل لذلك لعقب هنا بمثل ما عقب به في سورة طه، لكنه

1- د مجدي حسين: النص القرآني ومعايير الفصاحة، مؤسسة حورس، الإسكندرية، ط1، 2011، ص14

2- السابق، ص24

لما كان وحيًا أوحاه الله وأمرًا قضاه جاء التعقيب مناسبًا لدلالة الآية.

هذه المعاني تحتمها آيات سورة الأحزاب في جملتها، وتدفع تأوُّلات الذين في قلوبهم زيغ، وذلك حين تحذر السورة من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) {الأحزاب/57}، وقوله تعالى: (لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا 60 مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) {الأحزاب/61}، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا 69 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا {الأحزاب/70}، ومع تلك النصوص المنذرة من إساءة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وإيذائه يمثل حضور نصوص أخرى فلسفة الإسلام في الإنذار الذي لا يسوِّغ لأحد من الناس وإن كان نبيًا مرسلًا أن يحاسب الناس أو يضع أعمالهم في ميزان العقاب والثواب وإن ظهرت إساءتهم، وليست تلك الفلسفة القرآنية صادرة إلا عن حكمة إلهية، وتتجسد تلك المعاني في قوله تعالى: (وَدَعْ أَذَاهُمْ) الأحزاب48، حيث جاءت (أذاهم) في هذا الموضع بصيغة المصدر، ومعلومٌ أن المصدر يضاف إلى فاعله ويضاف إلى مفعوله؛ فإضافته إلى فاعله كقوله تعالى: (فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ (ظُلمِهِ) وَأَصلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوب عَلَيه) المائدة39، وإضافته إلى مفعوله كقوله تعالى: (وَلَمَن انتَصَر بَعد (ظُلمِه) فَأَولئك مَا عَلَيهِم مِن سَبِيل) الشورى41.

ومقتضى البلاغة القرآنية هنا أن المصدر (أذاهم) في سورة الأحزاب تتسع دلالته لإفادة المعنيين معًا؛ أما معنى إضافتها للفاعل فالمراد: دع إيذاءهم فلا تلتف إليه، ولا تبتئس، ولا يضق صدرك بما يقولون، ولا تحزن عليهم، وهذا مفهوم من قوله تعالى: (فَاصدَع بِما تُؤمرُ وَأَعرِض عن المُشرِكين) الحجر94، وقوله تعالى: (وَلا تحزن عليهم ولا تَكُ في ضيق مما يمكرون) النحل127، وفي هذا المعنى تسلية للنبي وتطلف به صلى الله عليه وسلم.

وأما المعنى المفهوم من إضافتها للمفعول فهو: دع أذاهم بمعنى: دع حسابهم على ما كان من إساءتهم؛ إذ ما عليك من حسابهم من شيء لأن الله تعالى كافيك وهو تعالى نعم النصير، وهذا مفهوم من دلالة آيات سورة الأحزاب كقوله تعالى: (وتَوَكَّل على اللّهِ وَكَفَى باللهِ وَكِيلًا) وقوله تعالى: (إِنَّ الذين يُؤذُون اللّهَ وَرَسُولَه لَعنَهُم اللّهُ فِي الدُنيا والآخرة وأَعَدَّ لَهُم عَذابًا مُهينًا) الأحزاب57، وفي هذا المعنى نصرة للنبي وانتصار لقدره الشريف صلى الله عليه وسلم.

ومثل تلك الآيات تؤكد وجوب توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنزيهه عن النقائص ووعي الخطاب الإلهي له بما ينبغي أن تعيه الآذان الواعية.

وهذا التوقير مفهوم بالضرورة من الآية التاسعة والستين المذكورة آنفًا، إذ المفهوم من الآية النهي عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، فقوله تعالى: (لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) متضمن معنى مفهوم من الآية بمنطق التفسير التداولي، فالنص يحمل للمتلقي رسالة ذات معنى أوسع من اللفظ بالضرورة، أدناه أن يفهم المتلقي أن النهي في الآية أصله أن يكون نهيًا عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مُبَرَأٌ من لدن الله ومعصوم من كل إيذاء، وأنه عند الله تعالى مكرم وأن الله ناصره، فلو عبر عن تلك المعاني بألفاظها لقال: (لا تؤذوا نبيكم ببهتان تفترونه فتكونوا كالذين آذوا موسى، وإن الله تعالى مبرئٌ نبيه صلى الله عليه وسلم مما تقولون كما برَّأ موسى مما قال المفترون، وإن نبيكم عند الله وجيه مكرَّم كما كان موسى عند الله وجيهًا).

وإن يدل ختام سورة الأحزاب على تكريم النبي وتعظيمه كما دل أولها، فإن في الإحالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في السورة الكريمة ما يؤكد ذلك، إذ قام الخطاب في السورة الكريمة من أولها إلى منتهاها على التوجه للنبي صلى الله عليه وسلم، إنْ بالنداء أو الخطاب أو التكلُّم عن النبي صلى الله عليه وسلم بصفته تعظيمًا، أو بالغيبة تكريمًا، فأما النداء فجاء في أول السورة وتكرر في وسط السورة وآخرها، وأما الخطاب فقائم في أكثر آياتها، وأما ذكر صفته فانظر كيف تنتقل الآيات في لحديث عن رسول الله من صفة إلى صفة من صفاته صلى الله عليه وسلم، (النبي، الرسول، رسوله، رسول الله، خاتم النبيين، أيها النبي، شاهدًا، مبشرًا، نذيرًا، داعيًا إلى الله، سراجًا منيرًا...)، وجاء ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم: (محمد)، حتى جاءت الإحالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب (102) مرة خلال آياتها الثلاث والسبعين.

ولو أردنا مثالًا لكثافة الإحالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في السورة الكريمة فإن في الآيات التالية توضيح لما جاء في السورة من إحالة بصور شتى للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ففي قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا {36} وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ

مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا {37} مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا {38} الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا {39} مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) {الأحزاب/40}.

في تلك الآيات إحالة للنبي بضمير الخطاب مستترًا أو بارزًا (تقول، أنعمت، اتق، تخفي، تخشى، تخشاه، نفسك، زوجناكها)، وبصفته (رسوله، رسول الله، النبي، خاتم النبيين)، وباسمه (محمد)، وبضمير الغائب (له)، وبمثل ذلك التعدد في صور الإحالة يسير الخطاب في السورة الكريمة.

فنجد مثلًا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا {45} وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا {46} وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا {47} وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) {الأحزاب/48}. ففي تلك الآيات مثل ما في سابقتها.

وقد تكثر الإحالة إليه صلى الله عليه وسلم في الآية الواحدة حتى تكاد تستغرقها كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا {50} تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا {51} لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا {52} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا

أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا) { الأحزاب/53}. إذ جاءت الإحالة في كل آية من تلك الآيات الأربع كثيفة حتى كادت ألفاظها لا تخلو من إحالة إلى النبي إلا القليل منها.

وقد أردت بإيراد تلك المواضع والإشارة إلى كثافة مرجعية الخطاب إلى النبي فيها، بيانَ قيام الخطاب القرآني في أكثره على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وما يترتب على ذلك من اعتبار تلك الكثافة والاعتداد بها في تفسير القرآن لا سيما إن عُني المفسر أو الباحث بالدرس التداولي.

الخاتمة:

كشفت كثافة الخطاب النبوي في القرآن الكريم عن أثر ذلك الخطاب في فهم دلالة النص القرآني، بما له من دلالة ظاهرة على ارتباط المعنى في كثير من مواطن الكريم بوعي خصائص خطاب النبي فيه خاصة؛ إذ لخطاب النبي في القرآن دلالات يحتمها أو يرجحها التناول اللغوي للنص القرآني، تلك الدلالات تجيب عن كثير مما أُشكِل على بعض المتلقين، فيعد النظر في خطاب النبي في القرآن سبيلًا للكشف عن المعنى القرآني إن جاز التعبير، بل يعد مسهمًا بالضرورة في بيان بعض مقاصد القرآن من ذلك الخطاب الممتد الكثيف.

وقد لا أكون مبالغًا إن قلت إنّ خطاب النبي في القرآن لا يزال كاشفًا عن وجه من وجوه إعجاز القرآن وبلاغته، بصلاحية هذا الخطاب للجواب عن أكثر ما يثار من شُبهات حول الرسالة النبوية والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وذلك بالنظر في الاستعمال اللغوي وما يثيره من دلالات يفرضها التفسير التداولي للنص إن جاز التعبير، ولا شك أن النص القرآني واسع الدلالة، فليس المقصود بالفرض هنا التزام القطع بقول واحد، ولكنه يعني في الوقت نفسه رفض هيمنة دلالة بعينها وإن تقادم عهد الناس بارتباطها بالنص وتضامّها معه.

لذا يوصي هذا البحث بمراجعة دراسة خطاب النبي في القرآن، وربطه بالدلالة القرآنية ليكون ذلك موضحًا لما أُشكِل على بعض المتلقين من دلالات النص القرآني، وقد تبيّن من خلال دراسة الخطاب النبوي في القرآن دراسة لغوية أن دلالة النص القرآني مرتبطة بالضرورة بخصائص اللغة ودلالات تراكيبها، بل مرتبطة بالدلالة النصية المجاوزة حدود الجملة إلى النص.

المراجع

- الألوسي: روح المعاني، دار الحديث، القاهرة، 2005.
- ستيفن ك. ليفنسون: البراجماتية اللغوية، ترجمة: د سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2015.
- د. عيد بلبع: القرآن الكريم والتطبيق التداولي أفعال الكلام بين الجذور المعرفية والنص، بحث منشور في مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، كلية التربية جامعة الإسكندرية، العدد السابع ديسمبر2017.
- فاطمة نصر: تأويلية الخطاب عند «محمد أركون»، بحث منشور في مجلة سياقات، العدد السابع، ديسمبر2017.
- فرانسواز آرمنغو: التداولية دراسة في شروط استعمال لكلام، ترجمة: د منذر عياشي، دار أمل الجديدة سورية دمشق.
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، 2010.
- د. مجدي حسين: النص القرآني ومعايير الفصاحة، مؤسسة حورس، الإسكندرية، ط1، 2011.
- د. محمد أبو عرب: حبك النص القرآني دراسة تطبيقية لمعايير علم اللغة النصي، مكتبة جزيرة الورد ومطبوعات دحروج ودار فنون، القاهرة، ط1، 2021.
- د. منذر عياشي:
- القرآن من بناء النص إلى بناء العالم، أمل الجديدة، سورية، دمشق، ط1، 2020.
- اللسانيات والدلالة دراسات لغوية، أمل الجديدة، سورية دمشق، ط1، 2017.
- هربيرت بركلي: مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، ترجمة: د قاسم مقداد، دار نينوى، سورية دمشق.

فهرس الموضوعات

م	اسم الباحث	عنوان البحث	الصفحة
1	د. فدوى تاوريريت أ. أمينة هلال	تداوليّة الخطاب الشّعري قراءة في تحوّلات مقاصد الشّعر العربيّ المعاصر	5
2	لبنى علي المفتاحي	مناهج الحداثة وما بعدها ومقاربة النص التراثي العربيّ	31
3	د. عبد الحميد إدريس الراقي	قضايا النّصّ عند الأصوليّين.. رصد لآليات الاشتغال	51
4	د. مريم عطية بوزيان	المنهج الأصولي والنظريات اللسانية قراءة في السّبق والضّبط	73
5	د. سليمان عبد القادر جبار	موارد تَشَكُّلِ النص القرآني في الدراسات الحداثية والاستشراقية	101
6	د. محمد أمجد رازق بن محمد رازق	علاقة التراث الإسلامي بمناهج البحث العلمي المعاصر -كتب الحديث النبوي وعلومه أنموذجا-	141
7	أ. د. الرشيد بوشعير	البنية البوليفونية في رواية «الديوان الإسبرطي» لعبد الوهاب عيساوي	167
8	د. خالد أحمد	قراءة نقدية من خلال نظريات ما بعد الحداثة للنص المسرحي تنصيص للكاتب فهد ردة الحارثي	181
9	د. لطيفة محمد الفارسي	شخصيات النصّ السرديّ في بنية القصص النبويّ. من القراءة المورفولوجية إلى القراءة الإحالية	229
10	أ. د. محمد عبد الحي	قراءة النص الأدبي بين التراث والمعاصرة	257
11	د. مونية مكرسي	قراءة النص اللغوي بين التراث والمعاصرة «مقاربة تأويلية في قصيدة وصف الحمى للمتنبي»	295
12	د. يونس إبراهيم أحمد العِزّي	الشعر الصوفي والتأويل أقنعة النص ومغامرة المنهج (مقاربة نظرية)	331
13	د محمد عبد الحليم أبو عرب	خطاب النبي في القرآن دراسة تداولية	371
14	د. فتيحة دوار	جُهود مالكية الغرب الإسلامي في خدمة النّص القرآني من خلال التفسير الفقهي للقرآن الكريم	401
15	د. مريم محمد بن خاتم الشامسي	نحو مفهوم جديد للقراءة البيداغوجية	437
16	د. أحمد محمد نجيب د. مجاهد جمال الحوت	التحليل اللغوي لألفاظ القرآن الكريم بين التراث والمعاصرة الزمخشري وابن عاشور أنموذجًا	455
17	محمد بن حسين الأنصاري	عُرْف النَّص التراثي رؤية منهجية من منظور التكامل في الدراسات البينية	489

18	أ. د. أحمد عبد الرحيم أحمد فراج	موقف اللغويين من العناصر غير اللغوية في التحليل النصي	535
19	عزيز محمد أوسو	البلاغة العامة وتحليل النصوص الأدبية سؤال في البنية المصطلحية	561
20	أ. آمنة مصبح القايدي	أَعْجُوبَةُ النَّصّ عِنْدَ عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيّ (دَلَائِلُ الإِعْجَازِ أُنْمُوذَجًا)	589
21	أ. شيخة عبدالله الزعابي	الشاهد النحوي في معجم مقاييس اللغة لابن فارس	605
22	د. حسين عمر دراوشة	قراءة النص اللغوي تداوليًا بين التراث والمعاصرة في الدراسات العربية نقد وتوجيه	637
	أبحاث سمينار الوصل		659
23	ابتسام هائل غيلان المذحجي	الآثار الجانبية للدواء في مرحلة التجارب على الإنسان دراسة فقهية	661
24	أ. تيمور سعيد أحمد شحي	تحقيق مخطوط في التراث الإسلامي موسوم بـ: يتيمة الدهر في فتاوى أهل العصر	675
25	أ. إسماعيل محمد حسن	اختيارات الرُّوْيَانِيّ (ت502هـ) في العبادات من كتابه حِلْية المؤمن: دراسة فقهية مقارنة	683
26	أ. محمد عطا الله فهد الثوابيّة	الأبعاد الفكريّة والتعليميّة في المثال النّحوي دراسة تداوليّة	689
27	أ. محمد حسين بصمه جي	التجريب في الرواية العربية	727
28	أ. سمية أحمد سالم السويدي	علاقة النظام النحوي بلغة الشعر المتنبي نموذجًا	739

شارع زعبيل – دبي – الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 97143961777+، فاكس: 97143961314+، ص. ب: 50106
البريد الإلكتروني: info@alwasl.ac.ae
موقع الجامعة: www.alwasl.ac.ae